فلسطين عروس عروبتكم

القدس ..
قتيل عروبتكم

obeikandl.com

obeikandl.com

هذا حديث ثقيل على قلب كاتبه وقارئه وعلى قلوب أولي الأمر ..

حديث لم يدعني إليه أحد .. فلا رأيي ولا رأي أي كاتب في أمتنا العربية مطلوب .. إلا إذا كان هذا الكاتب .. من كتبة السلطة السريين - كالشرطة السرية - .. لا دور له إلا أن يمتدح ويبرر .. فإذا ارتفع عند السلطة مقامه .. سمحوا له بأن يكون صماما ينفس عن بعض غضب الناس وإحباطهم .. بإبداء قدر من المعارضة أو الانتقاد ..

***

فكرت والقلب ينزف أن أتناول الموضوع ساخرا .. باحثا عن حلول أزعم أنها عبقرية .. أعرضها على القوم .. كل القوم .. موجها حديثي إلى سادتي في الولايات المتحدة باعتبارها الوريث الشرعي لروما وبيزنطة وباريس ولندن .. والممثل الرسمي لكل قوى الاستعمار والصليبيين في التاريخ .. فكرت أن أفضي إليهم بحل عبقري .. لا لمشكلة القدس فقط .. بل لمشكلة هذا الجزء من العالم .. الذي بلغ من سأمهم واشمئزازهم منه أن اعتبروا أن العربي الوحيد الطيب .. هو العربي الميت (هذا القول .. ينطبق بالطبع أكثر ما ينطبق .. على الكتاب .. !!) ..

نعم فالحل العبقري الذي أقدمه يحل المشكلة من جذورها .. مشكلة العرب وعالمهم الغريب الذي جرؤ لألف عام .. لا أن ينافسهم فقط .. بل أن ينتزع منهم قصب السبق .. ليكون أعظم قوة في العالم وأنبل حضارة .. هذا الحل العبقري الساخر .. لا يأتي من فراغ .. بل هو مستمد من فكر الإرهابيين العرب .. الذين طالما واجهوكم وواجهوا الإسرائيليين بأن يعودوا من حيث أتوا .. الحل إذن عند العرب غير الطيبين- لأنهم غير موتى- هو تفريغ فلسطين من اليهود .. فلماذا لا نرد الصاع إليهم .. بأن نفرغ الدول العربية من العرب .. ذلك هو الحل العبقري الذي يقضي بأن تعلن الولايات المتحدة عن فتح باب الهجرة للعرب .. وتصورت أن ٩٠٪ من شباب العالم العربي سيذهب .. لتبدأ رحلة جديدة للعبيد .. كانت في سالف الزمان إجبارا .. لكنها ستتم الآن اختيارا وبين الإجبار والاختيار نزف الدم نزف الوعي نزف الدين .. فكرت أن أتصل بالسفير الأمريكي .. أقول له: لن يعجزكم أمر مائة مليون شاب عربي .. أو حتى مائتين .. خذوهم .. لن يحتاجوا منكم أي مجهود .. فقد تمت بالفعل غوايتهم .. أغوتهم أجهزة إعلام بلادهم .. و .. و .. و .. لديكم

أعظم خبرات الدنيا في الإبادة أو التهجين .. تولوا أمرهم كما توليتم أمر الهنود الحمر .. لو فعلتم ذلك .. وفي غضون أعوام قليلة .. ستخلو الدول العربية من معظم أبنائها .. ولن يبقى سوى العرب الطيبين- أي الذين ماتوا- .. وبهذا لن يكون لدى إسرائيل أي مشكلة .. ليس في الاحتفاظ بالقدس فقط .. بل في أن تنفذ مشروعها الكبير: من النيل إلى الفرات.

فكرت في حلول أخرى هزلية .. منها أن نسمى أي بلد في فلسطين أو الأردن أو لبنان أو سوريا أو مصر: القدس .. وتنتهى المشكلة .. فكرت في هذا الحل الهزلى الساخر لكنني اكتشفت أن بعض سادتنا قد سبقونا إليه .. بل ويعاملونه بمنتهى الجدية ..

فكرت أيضا في أن تتكفل العبقرية التكنولوجية الأمريكية باستنساخ المسجد الأقصى بحيث يكون في كل بلد إسلامي مسجده الأقصى فترتاح إسرائيل إلى الأبد من التلوث البيئي بالعرب والمسلمين ..

فكرت في ذلك .. وفي غيره .. لكن السخرية انقلبت عليّ .. حين وجدت قلبي ينزف ..

***

فكرت أن أواجه ولاة أمورنا بطريقة « الساذج» وهو بطل رواية شديدة العذوبة . إن لم تخني الذاكرة لفولتير .. وهى تتحدث عن شخص شبه متوحش يجدونه في جزيرة فيأخذونه إلى بلادهم .. فيكشف لهم يوما بعد يوم زيفهم .. زيف السياسة والكنيسة والنخبة والشعارات والأخلاق .. فكرت أن أواجه ولاة أمورنا بطريقة الساذج .. فأذكرهم بما كان .. وأن ما يتهموننا به الآن هو بعينه ما صبوه في وجداننا .. وأننا ندافع عن مواقفهم هم منذ عشرين أو ثلاثين عاما .. إنهم هم الذين تغيروا وليس نحن .. وأننا حين فرطنا كشعوب في حقوقنا يوما بعد يوم .. فقد كان ذلك من أجل قضيتنا الكبرى .. قضية فلسطين .. وأنهم لم يتقبلوا منا مشاركة ولو بالرأي في أي يوم .. صرخوا فينا دائما أن لا صوت يعلو على صوت المعركة .. فحرصنا على ألا يسمعوا وجيب قلوبنا .. .. قادوا سفننا وتولوا حكمنا: اربطوا الأحزمة على البطون فالأوطان في خطر .. ورحبنا .. لا حديث عن الحرية فالعرب مستهدفون .. ورحبنا .. سنلبي لكم كل ما تريدون ولكن بعد النصر .. فما استعجلنا .. دعونا نعمل في

صمت .. فما تململنا .. ثم فجأة قادونا كالخراف إلى كامب ديفيد الأولى وكالنعاج إلى مدريد وكالسائمة إلى أوسلو وكامب ديفيد الثانية ..

وعاد صوتهم: لا تقلقوا .. سنأتي لكم بالسلام العادل ..

فيم كان إذن كل القهر والذل الذي عانيناه ونحن نسير خلفكم مغمضي العيون موصدي الآذان نمني نفوسنا بحلاوة النصر حين يجيء ..

وفيم إذن كان كل القهر والذل والبطش والجبروت أن صدقناكم فانتظرنا سلاما عادلا مع أن للسلام العادل عندنا معنى واحد ..

ضيعتمونا .. ليست القدس هي التي تضيع بل تضيع بعد أن ضاع الكل ..

يا إلهي .. منذ متى ونحن ننخدع .. خديعة مزدوجة .. أنتم تنخدعون بوعود الغرب ونحن ننخدع بحديثكم ..

بل إنكم في حديثكم مع الخليفة كلينتون .. لم تقولوا له أنكم مصرون على استعادة القدس لأن ذلك هو الدين والحق والعدل .. بل قلتم له أنكم تخافون بطش شعوبكم ..

وكأنكم معهم علينا ..

وكأنه لا مانع عندكم بأن تسلموا لهم بما يريدون لولا شعوبكم ..

أفدح من ذلك وأنكى ما سربه إبراهيم نافع في الأهرام من أن هناك البعض منا قد وعدوا أمريكا بما يرضيها في مسألة القدس ..

***

يا إلهي .. إنها هزيمة شاملة كاملة ..

والأمر يعود حتى إلى ما قبل إسرائيل .. كنا نطيعكم وكنتم تطيعوهم ..

- الإسلام ليس مبررا للاحتلال التركي .. الدين لا يقيم دولة وتركيا دولة احتلال فاستقلوا .. سننشئ دولتنا العربية الكبرى وتكون الخلافة فينا ..

أطعناكم .. ضاعت الخلافة .. وضاعت الدولة الإسلامية .. ولم تولد الدولة العربية ..

- لا .. سنبحث عن حل آخر .. القومية العربية ..

- لا بأس .. وأطعناكم ..

لكن القومية أصيبت بالشلل في سيناء سنة ٦٧ .. ثم عشنا معها بعد ذلك نتجرع علقم العجز حتى وافتها المنية فدفنت في الخليج عام ٩١ ..

- أي قومية تلك التي تتحدثون عنها ؟ القومية تخلف .. ثم ما الذي يربط المصري ذا الحضارة الموغلة في التاريخ أكثر من سبعة آلاف عام ببدوي جاهل؟ .. وما الذي يربط الشامي بالمغربي ؟.

لكن الصوت في الطرف الآخر كان يقول:

- أي قومية .. ما علاقة العرب بالفراعنة .. ؟ .. إن المصريين كالسوريين كالعراقيين كالأتراك يريدون احتلال بلادكم .. شحاذون طامعون في ثرواتكم .. دعوا القومية إلى القطرية .. مصر أولا ومصر أخيرا .. مصر قبل الجميع .. سوريا قبل الجميع .. العراق قبل الجميع الحجاز قبل الجميع .. الكويت قبل الجميع .. الخليج قبل الجميع ..

تبلبلنا .. لكننا أطعناكم .. فلما اندفعنا إلى القطرية بدأ أسر الأقطار وحصارها .. فما من قطر غير مرتهن وغير مهدد .. اكتملت الدائرة لنعود من حيث بدأنا .. فإذا بهم يثيرون الفتن الطائفية لتبرز دعاوى تقسيم الأقطار على أساس ديني .. السودان مهدد والعراق مهدم ومصر مهددة والمغرب مهدد ولإسرائيل مطالب دينية في المدينة المنورة .. التقسيم على أساس ديني .. الأساس الذي حرضونا على الدولة الإسلامية من أجله!! ..

***

في لقاء مع السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية السابق في مصر، كنت أقول له:

لقد حكمتم على أنفسكم بالهزيمة من اللحظة الأولى .. لأنكم أغفلتم ألفا وخمسمائة عام من الصراع لم تتوقف فيها الحروب الصليبية يوما واحدا .. اعتبرتم إسرائيل هي العدو الاستراتيجي لمصر .. وكان ذلك خطأ قاتلا .. نعم .. أنا معك .. لو أن إسرائيل هي العدو لكفتنا مصر أو حتى سوريا أمرها .. لكن الأمر لم يكن كذلك .. كان أكبر بكثير .. كان صراعا بين حضارتين .. وهو صراع سيظل ناشبا حتى يوم القيامة .. ولمثل هذا الصرع أدوات وآليات وقوانين أخرى .. منها أن

نقاتلهم كافة كما يقاتلوننا كافة .. ومنها أن نكثف كل جهودنا لتوحيد العالم الإسلامي .. و .. و .. و ..

لم تضعوا كل ذلك في حسبانكم .. كنتم كمن يحسب أنه يصطاد ثعلبا أو ذئبا فأعد عدته فإذا به يفاجأ أنه يواجه سربا هائلا من النمور والضباع .. لذلك كان حتما أن تنهزموا ..

***

لكن .. ليس لديّ الكثير لأقوله عن القدس هذه المرة ..

..

إن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ..

فليفاوضه ..

لكن الأمة لن تسبغ شرعيتها على أي اتفاق .. حتى لو حدث المستحيل وعادت القدس الشرقية كلها .. (وذلك لن يحدث) .. فماذا عن الغربية .. وماذا عن فلسطين كلها .. الوديعة التي استودعناها عمرُ بنُ الخطاب فأضعناها .. وماذا عن العراق .. وماذا عن السودان .. وماذا عن ثارات ألف عام؟!.

***

رحت كعادتي حين يثقل الألم قلبي أترنم بقصيدة مظفر النواب: « القدس عروس عروبتكم» .. لكنني غيرت كلمة .. فرحت أترنم:

القدس قتيل عروبتكم .. !!